"استراتيجيات الخطاب في رواية التبر لإبراهيم الكوني"
دراسة تداولية تحليلية

أ.محمد حسن الغراري
جامعة الجفارة- ليبيا

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أما بعد

فيعد موضوع استراتيجيات الخطاب من الموضوعات اللغوية المهمة في جميع حالات الحياة اليومية؛ لما لها من دور كبير في تقريب وجهات النظر وتبادل الأفكار بين الناس، فالكل منا لديه استراتيجية خاصة في خطابه مع فئات المجتمع المختلفة لاختلافهم في التكوين ولتعود ميولهم ودرجة استيعاب كل منهم.

إذا فإن الخطاب هو اللغة ونحن عندما نخاطب لا نحرك أعضاء النطق هكذا، بل هناك وظيفتان للغة من حيث المنظور التداولي، وهما وظيفة تعليمية ووظيفة تفاعلية، أما التعليمية فهي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات تبرز من خلال قيمة الاستعمال اللغوي فيركز أن يأخذ منه المعلومات الصحيحة والدقيقة(1).

وأما الوظيفة التفاعلية فهي التي يقيم الناس بها علاقاتهم الاجتماعية ويحققون غاياتهم، وتتمثل في قدر كبير من المعاملات اليومية التي تحدث بينهم ومن خلال هذين الوظيفتين تندرج جملة من العناصر في الخطاب وأهمها هي المرسل وبدونه لا يحدث خطاب والمرسل إليه والذي تتجه لغة الخطاب إليه.

السياق: هو الإطار العام الذي يسهم في ترجيع أدوات بعينها واختيار اليات مناسبة لعملية الإفهام والفهم بين طرفي الخطاب.

(1) . عبد الهادي بن ظافر الشهري _استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية والكتاب الجديد المتحدة ببيروت لبنان 2004م ص3

وأما العنصر الأخير فهو الخطاب، ويعد ثمرة اجتماع العناصر الثلاثة السابقة في تكوين استراتيجيات الخطاب التي تنقسم إلى قسمين تضامنية وتوجيهية وتثير الروايات إشكالات عديدة يتصل بعضها بالإصلاح والبعض الأخر بمناهيه الجنس الأدبي وتطوره(1)

ويري الناقد ميخائيل بأختين، أن الرواية شكل غير منجز ومتذبذب وغير مستقر وأن الرواية هي النوع الوحيد الذي لم يكتمل، وقد عرفت الرواية في العصر الحديث بأنها سر قصصي نثري طويل يصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال والمشاهدة، ومن خلال هذا التعريف نجد الروائي الكبير إبراهيم الكوني يرد لنا روايات عديدة ومشوقة من المجتمع الطارقي الذي جعله مسرحا لإحداث رواياته، ولعل السبب في ذلك بأن الكوني هو احد أبناء هذا المجتمع الطارقي فقد تعرض لعادات أهل الصحراء وأعرافهم وتقاليدهم، وتغني بالقيم والمثل السائدة بينهم، وسعى إلى ابراز سمات مجتمع الطوارق في حله وترحاله وهي القيم الكبرى في مجتمع الصحراء كالنبل والشهامة والفروسية.

ومن خلال هذا البحث المعنون بـ"استراتيجيات الخطاب في رواية الثير لإبراهيم الكوني"، نود أن نوضح ولو بعض الشيء عن الخطاب في هذه الرواية(2).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وعلي اله وصحبه أجمعين، وبعد

فإن اللغة ثمرة العمل وأعظم أصول العلم وأدق وأرقي نظم التواصل الإنساني وأعقدها في نفس الأمر، فهي نظام لا يستقيم إلا بتظافر وحداته وعناصره لكي تتحقق أداة الاتصال بين البشر بالأشكال الأدبية المختلفة.

هذا النظام اللغوي تنبري منه عدة تشكيلات تسهم في بناء الخطاب الإنساني لاسيما ما يتعلق بالفن القصصي والروائي.

(1) . ميخائيل يختين الملحمة والرواية، ترجمة جمال شحل، معهد الإنماء العربي، الهيئة القومية للبحث العلمي طرابلس سنة 1991 ص19

(2) . إبراهيم فتحي _ معجم المصطلحات الأدبية المؤسسة العربية للناشرين المتحدين تونس سنة 1986، ص176

وقد طغت الروايات . وبخاصة الاجتماعية . على الأجناس الأدبية الأسلوب في ليبيا منذ أن انطلقت في الخمسينات من القرن العشرين حيث بلغت مستوى ممتازا ومميزا من حيث الكم والكيف، خاصة في فترة السبعينات من القرن نفسه على يد بعض الأدباء الروائيين كأحمد إبراهيم الفقيه، والصادق النيهوم، وخليفة حسن مصطفي، وأحمد نصر، وسالم الهنداوي، وشريفة القيادي، وإبراهيم الكوني الذي تفرد بالكتابة عن الصحراء، فضاء، وشخصيات وتراثا، ولغة وكل ذلك اقترن بالأساطير كما أنه يمثل علاقة مضيئة في المشهد الروائي والعربي والعالمي على حد سواء فضلا عن ذلك أن جمالية الصحراء تشكل جمالية سردية من نوع خاص، لأنها تعد ظاهرة جديدة ليس في تاريخ ليبيا فقط، بل حتى في تاريخ الرواية العربية.

ومن خلال هذا الفن الروائي وجماليات الصحراء ارتأيت أن يكون بحثي في إحدى مؤلفات إبراهيم الكوني وقد وقع اختياري على رواية القير نموذجا حيث هذه الرواية تتسع لأكثر من مستوى لغوي وأكثر من شخصية بين الحيواني والإنساني تعبر عن التراث الشعبي، أو الأسطورة التي جعلها المؤلف لغة لروايته، وإذا كانت الكتابة تعني التواصل فإن هذا التواصل يتحول من عملية خطاب مباشر يكون المقصود فيه الكلام غائبا، ولا سبيل إلى جعله كالشاهد إلا بالكتابة فيصبح المتكلم كاتبا، ويصبح السامع قارئا، وتتحول القناة من المشافهة إلى الكتابة.

أما استراتيجيات الخطاب وإن كانت تندرج في الإطار للغوي والتداولي فهي لم تلق العناية، ولم تحظ بدراسة مستقلة في اللغة العربية تبرز خصائصها وتظهر دقائقها وهذا ما حفزني على المبادرة إلى دراسة هذا المنهج، على اختلاف محاوره، محاولة التعرف به وتطبيقه على رواية التبر، لإبراهيم الكوني(1).

دوافع البحث:

1_ مواكبة المسيرة الأدبية، واستظهار الصورة الكتابية وتقنيتها في ليبيا.

2_ إظهار الأدب الليبي؛ لأنه لا مناص من أن لكل أمة أو شعب أدب يفتخر به وبأعلامه، فلا تاريخ لمن لا أدب ولا علم له، فالأدب شعرا كان أو نثرا هو المرآه التي تصور أفراح الأمة.

3_ جمال الصحراء والوقوف عند تجارب الكوني في أعماله الروائية التي أخذت مجالا واسعا لبيان أثر المكان الصحراوي.

(1) . حمادي صمود، في نظريات الأدب عند العرب

وهذا كله من أبرز دوافعي لدراسة الأدب الروائي الليبي ونشره؛ لاعتزازي وافتخاري به كأنموذج متميز للأذب العربي الحديث.

❖ إشكاليات الدراسة:

_كيف تتمظهر استراتيجيات الخطاب في رواية التبر؟ وماهي أنواعها؟ وما العناصر المتحكمة فيها؟

_ كيف تتجلي الاستراتيجية الخطابية التضامنية في الخطاب الروائي؟

_ كيف يمكننا بلورة مقاصد رواية التبر؟

الدراسات السابقة

الدراسات السابقة تعد مفيدة ومهمة، كيف لا وهي تعد مفتاحا مهما لكتابة أي بحث علمي، وفي هذا الموضوع قد تبين لنا ندرة الدراسات العربية المختصة والمؤصلة للمنهج التداولي، وتناول هذا البحث:

- المقدمة، وظيفتها توضيح بسيط لمفهوم البحث وخطة الدراسة.
- التمهيد، وهو عبارة عن توضيح وبيان لمصطلحات البحث(1).

❖ التعريف بالرواية

من المعلوم أن العلم بالحيوانات وطبائعها علم قديم عند الإنسان حتى قبل الإسلام فنجد الشعراء يتغنون بأشعارهم ويفتخرون بحيواناتهم ومواقع المياه ومنازل الرعي، والصحراء الشاسعة كانت كأنها كتاب مفتوح بالنسبة لهم وكانت ثروتهم تنحصر في قطعان الإبل والخيل والغنم والبقر والمعز، ولكن الحيوان الحبيب لديهم أكثر شيء ويعتبر المعيار الحقيقي لثروتهم حتى أطلقوا عليه اسم النعمة الكبرى، وهو الجمل، وهذا واضح في رواية التبر ولعل التبر أن تكون واحدة من الروايات المكتوبة بالعربية التي تضئ من خلالها العلاقة الحميمة المدهشة التي تقوم بين الإنسان والجمل.

عند قراءة هذه الرواية نجد أن الكاتب يرقي بهذه العلاقة إلى درجة الإخوة التي لا يفرقها الا الموت، فقد تخلي بطل هذه الرواية (أخيذة) عن زوجته وولده في زمن حرب الطليان والجوع والجدب في الصحراء الواسعة ليحتفظ بجملة (الأبلق) الذي يبدله نفس المشاعر والأحاسيس

(1) . فخري صالح، الرواية العربية الجديدة ص 153 .

التحم الجسد بالجسد واختلط الدم بالدم، في الماضي كانا صديقين فقط، أما اليوم فإنهما ارتبطا بوثاق أقوي من أخوة النسب، قد تلد الأم شقيقين دون أن يكونا أخوين شقيقين في الرحم(1).

تدور أحداث هذه الرواية بين (وأخيذة، وأبلقه) في شباك الجنس إلى الانطواء والعزلة ثم التفكير في الرحلة التي تأرجح فيها بين الحياة والموت رفقة مهرية، وأخيرا التخلي عن الزوجة والولد مقابل حقنه من الذهب، زمن هنا يتضح لنا أن التبر هو دلالة الجشع وغواية الشيطان كما تبين أن الرواية ذات مستوى سردي واحد بدأ فيها الراوي سرده على الطريقة التقليدية محافظا على مسافة زمنية ومكانية بينه وبين ما يروي، وهذا الأسلوب نجده في جميع رواياته التي تتحدث عن الصحراء وفضاء الحرية، وكذلك إرث أجداده الطوارق الذي يحفر في تراثهم ويكشف عن خصوصيات عيشتهم.

وهي رواية ليبية حديثة أظهر فيها الكوني حقيقة الطمع والجشع الذي يسببه التبر (الذهب) بكتابة ابداعية جمالية سردية تميزت بغزارة الأحداث وتعقيد في البنية، ومن هنا ارتأينا هذه الرواية موضوعا لهذا البحث تحت عنوان استراتيجيات الخطاب في رواية التبر لإبراهيم الكوني.

وقد قسمت البحث إلى مبحثين هما:

- المبحث الأول:

_استراتيجيات الخطاب التضامنية مفهومها وتطبيقها على رواية التبر لإبراهيم الكوني.

- المبحث الثاني:

_ استراتيجيات الخطاب التوجيهية وتطبيقها على رواية التبر لإبراهيم الكوني.

- الخاتمة.

وفيها عرض أهم النتائج البحث

❖ المبحث الأول:

–استراتيجيات الخطاب التضامنية مفهومها.

❖ تمهيد

من المعروف أن الخطاب علاقة تكون مع الغير وهناك عاملان يؤثران على المرسل في اختيار استراتيجية خطابه وهما:

(1) . إبراهيم الكوني، التبر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط 3 _1992 ص 48

1.العلاقة السابقة بينه وبين المرسل إليه قد تتدرج من الحميمية إلى الانعدام التام.

2.السلطة الذي يمتلكها طرفي الخطاب عندما تعلو درجته على الآخر وأحيانا تتساوى درجاتهما أو لا تربطهما علاقة ببعض. (1)

وتقوم استراتيجية الخطاب اجتماعيا على هذين العاملين بشكل عام، وهو مردة تصنيف (ليتشر) للعلاقات بين الناس إلى صنفين، الصنف العمودي ومحور السلطة، والصنف الأفقي الذي يتحدد على أساسه ما يسميه (براون جلمان) معيار التضامنية كبعد اجتماعي، وبين هذين الصنفين تناسب عكسي، حيث يتضامن المرسل مع المرسل إليه، أو يكون لديه الاستعداد أو للتضامن عندما تتدني درجة سلطته، وقد لا يرغب في التضامن عندما تعلو سلطته، فقد يفضل أن يتعامل مع المرسل إليه بخطاب رسمي يؤكد على رغبته في إبقاء الفرق بينهما. (2)

ويبقي استعمال الاستراتيجية التضامنية مرهونا بقصد المرسل وبهدف الخطاب إذ تعد صيغ الخطاب واحدة من الوسائل اللسانية التي يجعلها المرسل علامة على توجيه الخطاب إلى المرسل إليه من الناحية النفسية والاجتماعية وهذه الصيغ مثل الضمائر، الأسماء، وعبارات التودد التي تمثل كلا من علاقات الرتبة والتضامن بين المرسل والمرسل إليه. (3)

❖ تعريف استراتيجية الخطاب :

من طبيعة المفاهيم أنها نسبية، وهذا سبب تباين الناس في تعريفها وتحديد شروطها ونتائجها بدقة صارمة، وليس التضامن بدعا من ذلك ونتيجة لهذا التعدد فإن مفهوم التضامن مفهوم معقد ومراوغ فهو صنف نظري بحثي. (4)

ورغم هذا حد مفهوم الاستراتيجية التضامنية بأنها التي يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالا هي محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه. (5)

---

(1) . ص 596 في هامش كتاب عبد الهادي E رقم 1

(2) . 2_ عبد الهادي بن ظافر الشهري _ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية _ دار الكتاب الجديد المتحدة _ بيروت، لبنان _سنة 2004 ط1 _ص257

(3) . المرجع السابق.

(4) . ص596 في هامش عبد الهادي E رقم 3

(5) . عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجية الخطاب مقارنة لغوية ص 257

وقد استعمل الباحثون في الاستراتيجية التضامنية عددا من المصطلحات لإيضاح بعد التضامن، فقد استعمل (براون وجلمان) التضامن، واستعمل (براون وليفنسون) البعد، واستعمل (ليتش) البعد الاجتماعي ونلاحظ أنه مع اختلاف الأسماء والتعريفات لهذا المصطلح فإن مفهومه واحد. (1)

❖ عناصر الاستراتيجية التضامنية:

هناك عدد من العناصر الاجتماعية التي تسهم في تكوين الاستراتيجية التضامنية سواء كانت مفردة أو مجتمعة، إذ يختص التضامن بالمسافة الاجتماعية المشتركة (مثل الديانة والجنس والسن ومسقط الرأس والعرق والمهنة والاهتمامات) ومدى استعدادهم للمشاركة في مسائلهم الشخصية، ونتيجة لهذا الاجتماع تتضح لنا عدد من العناصر في تكوين الاستراتيجيات التضامنية وهي:

1_ مدى التشابه والاختلاف الاجتماعي.

2_ مدى تكرار الاتصال.

3_ مدى امتداد المعرفة الشخصية

4_ درجة التأليف.

5_ تطابق المزاج أو الهدف أو التفكير.

6_ الأثر الإيجابي / السلبي.

وتشترك هذه العناصر كلها في إطار واحد هو إطار العلاقة التخاطبية، باعتبار ما كان وما سيكون وتصبح هذه العناصر معيار تسهم في تحديد هذه الاستراتيجية وتسهم أيضا في مقدار التضامن بين طرفي الخطاب الذي ينتج عنه أهمية شرط الإخلاص عند المرسل في خطابه أن الكلمة، كما قال عامر بن عيسي قيس (إذا خرجت من القلب وقعت ف القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان). (2)

❖ تطبيق استراتيجية الخطاب على رواية التبر:

في البداية يجب علينا حصر الشخصيات داخل هذه الرواية لكي يتسنى للقارئ معرفتها، وهي من سيدور حولها أو بينها الخطاب وليس بشرط أن تكون الشخصية إنسانية فهنا نجد الروائي إبراهيم الكوني يجعل بعض شخوص الرواية من غير البشر وهذا ما أكده الكاتب والروائي

(1) . هامش عبد الهادي رقم 8. 3_ هامش عبد الهادي رقم 9

(2) . هامش عبد الهادي رقم 15.

والناقد فورستر في كتابه وجوه الرواية بقوله (لقد كانت ثمة محاولات لذلك، غير أن هاتك المحاولات لم تبلغ الشخصية الإنسانية من الجودة والحيوية والصدق، وسبب ذلك في رأيه أن قدرة الإنسان على تقمص شخصية أخيه الإنسان الأكبر من قدرته على تقمص شخصية الحيوان لذا كانت المحاولات التي من هذا النوع أقل نجاحا من الروايات التي تقتص على الشخصيات الأدبية، ولكن إذا أخذنا بهذا القول فإننا ننفي وجود الملاحم والأساطير التي تتحدث عن شخصيات هي مزيج من المتخيل الغرائي والواقع، فالكاتب يحرك مالا يتحرك.

ويخلق عالمه العجيب من أشياء لا علاقة لها بما هو موجود في الواقع مثل كتاب كلية لأبن المقنع وغيرها. (1)

وبما أن إبراهيم الكوني ابن الصحراء فقد اختار معظم شخصيات الرواية من عالم الصحراء التخيلي سواء كانت إنسانا أو حيوانا أو نباتا أو جمادا، فكل كائن له الحق في الحياة كما له الحق في الكلام والتعبير ومن أهم شخصيات الرواية، أوخيد وأبلقه فهما البطلان اللذان تدور حولهما معظم أحداث الرواية وكما أنها شخصيتان مليئتان بالتناقض وتمثلان بؤرة الصراع داخل الرواية فكلها تدور باقي الشخصيات مثل : الشيخ موسي الذي كان له دور ف النصح والإرشاد لبطل الرواية، وشخصية ايور زوجته وأم ولده وهي الشخصية التي مثلت الدور الأنثوي العتيد الذي يؤدي إلى الإغواء والخطيئة، فالأنثى هنا تعتبر تدنيسا وتلويثا للصحراء المكان المقدس في نظر الكوني وشخصية دودو الرجل الغني الذي كان يعيد الذهب ويري فيه كل شيء، وشخصية الراعي وشيخ القبيلة والآلهة تأنيت ولأم وأخت بوخامد والجن والولد فهذه معظم شخصيات الرواية.

تبدأ هذه الرواية بخطاب تضامني بين أوخيد ونفسه أي جعل من نفسه طرفي الخطاب ف التلذذ في وصف مهريه الأبلق الذي تلقاه هدية من زعيم قبيلة (هجار) نفسه، (لا)، هل سبق لأحدكم أن رأي مهريا في رشاقته.

اهجار : قبائل عريقة تستوطن جنوب شرق الجزائر

الإبل المهرية _ منسوبة إلى قبيلة مهرة بن جيدان من اليمن وحقنه وتناسق قوامه ؟ لا.

هل سبق لأحدكم أن رأي مهريا ينافسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟ لا

هل رأيتم أجمل وأنبل. (لا لا لا).اعترفوا أنكم لم تروه ولن تروه. (1)

---

(1) . إبراهيم خليل : بنية النص الروائي (دراسة العربية للعلوم خاشرون، بيروت لبنان ط 1 _ 2010 ص 205.

بدأ الكوني في استراتيجية الخطاب في هذه الرواية بأن جعل المرسل والمرسل إليه في نفس الشخصية لكي يقنع نفسه وغيره بمهره الصغير الذي يفتخر به بين أقرانه ويجعله مثله الأعلى في الشجاعة والكبرياء، وقد وصل به عشقه لهذا الأبلق إلى الذهاب إلى شاعره من القبائل المجاورة وطلب منها أن تقول قصيدة مديح للمهري، فكان الخطاب بينه وبين هذه الشاعرة وجعل سلطة الخطاب له بأن جعل يحصي لها صفات المهري بقوله (أبلق، رشيق، ممشوق القوام نبيل شجاع لكي يقنعه) . (2)

وقد نجد أن الكوني استخدم الصداقة بين طرفي الخطاب في هذه الرواية وهذا يبدأ واضحا بين أوخيد ومهرية ،(يحق لي اليوم أن أتباهى بمرافقتك ،الأبلق المهري فريد في الصحراء، ثم غمز بعينه المخفية في الكتاب الأزرق، الملاحظة أزعجت أوخيد لأنه لم ير صدقا في عيني رفيقه.

نلاحظ أن الكوني ركز على حسن التعامل مع صاحب السلطة بطريقة تحقق الأهداف وتنقل المقاصد وتؤسس العلاقات الطيبة معه. (3)

فعاش أوخيد في المسافة القصيرة الفاصلة بين العراء الممتد غربا حتى حلقة الغناء في الوسط، دهرا من السعادة.

وأحيانا نجد الخطاب التضامني لتحسين صورة المرسل أمام الآخرين فعندما انكشف أمر أوخيد وأبلغه بقصة العشق وضبط أوخيد عاريا ونقله إلى شيخ القبيلة ليحقق في الأمر فما كان على شيخ القبيلة بعد أن فهم القصة كاملة أبى إلا أن يحسن صورة أوخيد بخطاب تضامني معه وتحسين صورته أمام أهل القبيلة، أمر بإعداد الشاي ودعاه إلى الجلوس على الكليم في الخيمة، قلب عكاز السدر بين يديه، وقال بوقار:

لا يعيب الرجل النبيل أن يعشق أو يهاجر للقاء، ولكن ماضرنا لو علمنا بشريعة المسلمين ودخلنا البيوت من أبوابها؟(4)

أراد الكوني من خلالها أن يزيح اللثام عن هذا التصرف من داخل قبائل الطوارق التي يعتبر جزءا منها، كما أنه حاول من خلال هذا الخطاب أن يصور الواقع الحياتي المعاش لها، وهو

---

(1) . إبراهيم الكوني _ رواية التبر _ دار التنوير للطباعة والنشر _ بيروت لبنان _ ط 3 سنة 1992_ ص 7

(2) - المرجع السابق ص8

(3) - إبراهيم الكوني _ رواية التبر ص10.

(4) - مرجع سبق ذكره ص 10.

ما يجعل المرسل إليه يتحسس المنظر والمشهد وكأنه يراه ويعيش معه، حتى كاد أن يقول بأنه ثمة حيوان قد يكون أوفي صداقة من محبة الإنسان للإنسان. (1)

لقد حاول الكاتب من خلال الخطاب مع الشخصيات داخل الرواية إقامة علاقة سردية متفاعلة بين الشخصيات والحوادث التي تفتعلها، كما يمكن أن نلمح أن هناك استراتيجية أخرى من استراتيجيات الخطاب وهي استخدام أسلوب النداء، إذ يعد توجيها لأنه يحفز المرسل إليه لرد فعل اتجاه المرسل، ياولي الصحراء إله الأوليين، أنذرك أنذر لك جملا سمينا، سليم الجسم والعقل أشق أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون اسيار

فهنا نلاحظ أن أوخيد استعمل أسلوب النداء في خطابه والدعاء إلى ابلقه بالشفاء فكان هذا الأسلوب مؤثرا في ذهن والمرسل إليه. (2)

كما أن الكوني استخدم استراتيجية أخرى في خطابه وهي تفعيل التضامن في حياة الناس، بما ينعكس على تفاعل الخطابي، وتطوير حقهم في ممارسة الحياة بحرية مع تقليص دور السلطة الشيخ موسي من أتباع القادرية، داره في الخيمة التي نصبها أبوه خصيصا لاستقبال الزوار والمهنئين له على السلامة من التيه قال له:

لا يشتري الشيء الجميل إلا بثمن باهظ، العافية أجمل ما في الدنيا فلا تندم على ما حصل. (3)

ومن جماليات الخطاب في رواية التبر الذي استعملها الكوني كسب ولاء الناس من الأهداف الرئيسية، واستعمال أسلوب النداء الجذب المرسل إليه لتلقي الخبر وفهمه.

لا تسخر مني فأنا مخلوق ضعيف ماذا تظن؟ الفارس أيضا مخلوق بائس يأكل نعله عندما يشرف على الموت جوعا، لا تقسني بنفسك فلم يهبني الله مخزنا للماء والطعام مثلك، الجوع يهين أنبل المخلوقات. (4)

وكذلك نجد أوخيد يحاول أن يرسل كلمات بخطاب تضامني الهدف منها هي مواساة أبلغه المريض أحس أوخيد بالوخز في قلبه صاح بلاوعي وهو يسارع ويستند على جسده.

---

(1) ـ مرجع سابق ص 15.
(2) ـ إبراهيم الكوني التبر ص 30
(3) ـ المصدر السابق التبر ص55
(4) ـ المصدر السابق ص 80

اصبر اصبر الحياة هي الصبر، ألم نتفق؟ لو صبرت نلت الشفاء أعرف أن الجن قوي ولكن الصبر أقوى من الجن.

ولكن المهري لم يصبر اشتكى بصوت عال طويل أليم. (1)

أراد الكوني بهذا الخطاب أن يوصل إلى القارئ أن علاقة الإنسان الصحراوي بالحيوان علاقة حميدة جدا ويشعر بما يشعر به ويتألم لألمه ويشاركه قساوة الطبيعة ومشاكل الحياة وهمومها.

وأما من ناحية التراث العربي فنجده يستعمل أسلوب خطابي تضامني، فكان الشيخ موسي الرمز الديني الذي اتخذه أوخيد للنصح والإرشاد، كذلك الآلهة (تانيت) والعرافة التباوية وكل هذه الشخصيات التي استعملها تدل على الثقافة الدينية داخل المجتمع الصحراوي.

المبحث الثاني

الإستراتيجيات التوجيهية

عرفنا فيما سبق أن المرسل قد يتلفظ بخطابه وفق مقتضي الاستراتيجية التضامنية من تأدب وتخلق خطابين إما مراعات لعلاقته الحسنة مع المرسل إليه، وإما بقصد تأسيسها معه بالخطاب ولكنه قد يغفل اعتبارها إن وجدت فلا يكترث بها في خطابه، كما قد لا يكون همه هو تأسيسها فيتلفظ وفقا لما تقضيه إحدى استراتيجيات الأسلوب، وهي ما نسميه هنا بالاستراتيجية التوجيهية (2).

وعند الخطاب قد تكون سياقات لا تناسيها الخطابات المرنة التي تمنح الأولوية لمبدأ التهذيب وعوامل التخليق، ويعود ذلك لعدة أسباب تتعلق بأولوية التوجيه على التأديب في خطابات

(1) - إبراهيم الكوني _التبر ص 35

(2) - عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب، ص323

النصح والإرشادات وغيرها، فالمتكلم أو المخاطب يولي عنايته فيها لتبليغ قصيدة وتحقيق هدفه الخطابي، بإغفال الجانب التعاملي الجزئي في الخطاب.

ومما سبق يتضح أن الخطاب التوجيهي يعد ضغطا وتدخلا ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه وتوجيهه لفعل مستقبلي معين، ولعله يكون السبب الرئيسي في تجاوز المرسل لتهذيب الخطاب، وقد يلجأ المرسل إليه إلى استعمال أدوات لغوية لا تتضمن بطبيعتها ذلك الخطاب في التأدب هنا لا يأتي في المقام الأول.

عند استعمال الخطاب التوجيهي فإن المرسل إليه يصنف إلى صنفين هما:

الأول: المرسل إليه المتخيل، والثاني: المرسل إليه الحاضر لحظة التلفظ بالخطاب، وكلاهما يسير مهمة المرسل في إنتاج خطابه التوجيهي وتوظيف المعرفة المسبقة بالمرسل إليه.

ولا يعد التوجيه فعلا لغويا فحسب، لكنه يعد وظيفة من وظائف اللغة التي تعنى بالعلاقات الشخصية حسب تصنيف (هاليد أي) إذ أن اللغة تعمل على أنها تعبير عن سلوك المرسل وتأثيره في توجيهات المرسل إليه وسلوكه.

هكذا يصنفها (جاكسون) إذ يسمي وظيفة التوجيه في اللغة بالوظيفة الإيعازية أو الندائية. (1)

وكذلك يوضح (روبل) بأنه يمكن أن نتحدث لنجعل شخصا آخر يتصرف كما في حالة الأمر والنصيحة أو الرجاء أو الرفض أو المنع.

وهذه المقاصد هي ما ينبغي المرسل إنجازها كما أن هذه الخصائص في اللغة هي ما يعول عليه المرسل عند انتاجية خطابه.

وكما أن هناك بعض العناصر الهامة التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية، ومنها يلي:

- سلطة المرسل.
- جهة المنفعة الإنجازية بين المرسل والمرسل إليه، فقد تكون عائدة على المرسل إليه وحده.

باستعمال هذه العناصر يكون استعمال الاستراتيجية التوجيهية في:

1. عدم التشابه في عدد من السمات مثل السمة المعرفية.
2. عدم وجود تكرار في الاتصال بين طرفي الخطاب.
3. الشعور بالتفاوت في مستوى التفكير بين طرفي الخطاب.

(1) ـ كتاب عبد الهادي ص 324

4. تهميش ما قد يحدثه استعمال هذه الاستراتيجية من أثر عاطفي سلبي على المرسل إليه.
5. تصحيح العلاقة بين طرفي الخطاب غير المتكافئين في الخطاب.
6. رغبة المرسل في الاستعلاء، ونجد هذا واضح في خطاب المظلوم الذي يطلب من القاضي أن يمنحه حقوقه.
7. إصرار المرسل على تنفيذ قصده عند انجاز الفعل.
8. مناسبة السياق التفاعلي لاستعمال التوجيه بين الطبيب والمريض.

❖ الاستراتيجية التوجيهية في رواية التبر.

مما لا شك فيه بأن الجدل النقدي حول المتكلم وخطابه في الرواية ليس واحدا، بل إنه تركيب صوتي متعدد يخترق الأفق الخطابية دونما حدود ويكون واضحا بين الخطاب ورؤية العالم.

فالروائي يمتلك حقه في الحياة لتعبير عن مواقفه الاجتماعية والأخلاقية بنص خطابي فنلاحظ أن المؤلف إبراهيم الكوني يسير في معظم رواياته على نسق واحد، حيث كانت الطبيعة الصحراوية مرض ذاكرة الكاتب وكذلك الحيوانات البرية التي يجعلها الكوني تسير دراما الحكي الروائي بعد أن يزيل عنها تلك العجمة ويخرجها في صورة نموذج مثالي للوفاء والشجاعة والبطولة، ويجعل منها صيغ خطابية تفرق في وهم الأسطورة وخبايا المنطق، كما أن الكوني يزاوج بين الأصوات البشرية المسموعة وبين أصوات الجن وأهل الخن وأهل الخفاء لينتج لنا نصا خطابيا توجيهيا يتضمن موضوع يتعلق بالخطيئة والحرية وهذا ما حدث في رواية التبر فكان اسم الرواية (التبر) سببا في الخطيئة وكذلك العلاقة الإنسانية والجنسية بين الرجل والمرأة كما أنه استعمل الجمل بطلا رئيسيا في تشكيل الصيغ الخطابية داخل الرواية مثله مثل غيره من الشخصيات الإنسانية، فكانت العلاقة بين المهري وصديقه أوخيد علاقة ود وحب تمحو الحدود بين الجنسين وتساوي درجات الخطاب بينهما.

ويباشر الكوني في هذه الرواية خطابه التوجيهي بسرد الوقائع المنجزة وممكنه الحدوث، وبذلك فهو يبرهن على تواجده التام في ثنايا الخطاب من خلال التعليق الموضوعي على بعض الأفعال السردية المهمة في البناء الحكائي منها مثلا : مرض الأبلق _ زواج أوخيد من أيور _ الجوع والبلاء _ النهاية المأساوية.

وقد استعمل الكوني أدوات وآليات تعبر عن توجه المرسل إلى أن ينفذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل التي تحقق خطابه التوجيهي بأشكال لغوية مختلفة منها : (السؤال،

التوسل، التضرع، المناشدة، الإلحاح، الدعوة ،الطلب، الحث، الابتهال، الاستعلام، التحريم، المنع، الإنذار... وغيرها، وهنا نذكر بعض الأمثلة على هذه الأدوات والأفعال في رواية التبر. (1)

_ هل تصدق أن فلاحا في مدخل الغابة أهدى لي حفنتين مجانا!؟

فهنا استعمل الكوني اداة الاستفهام في تسهيل الأمر إلى وصول الخطاب التوجيهي إلى المرسل إليه، وكذلك إلى السؤال في المستقبل استعمل الكوني عندما وقعت قصة الجوع في الصحراء وأن معظم العائلات ماتت بأكملها ودفنت في مقابر جماعية، فقد سأل أحد الفلاحين أوخيد واستعمل في خطابه التوجيهي سؤال عن المستقبل. (2)

_هل هناك ما يشير إلى أن الحرب ستنتهي؟

وكذلك في النفي نجد أن إبراهيم الكوني استعمل اداة النفي في الخطاب التوجيهي، (لن نفعل شيئا الحرس والعسس، الخدم والحشم، اشتري كل شيء بماله وبذهبه).

لعنة الله عليه وذهبه، وهل يظن أنه يستطيع أن يشتريني أنا ويشتري زوجتي. (3)

❖ الخاتمة

نحمد الله – سبحانه وتعالى– على إنهاء هذا البحث وبعد جولة سريعة في رحاب رواية "التبر" لإبراهيم الكوني، أتمنى من الله أن أكون قد أوضحت ولو جزء بسيط من عالم الصحراء وآدابها، وإنزالها المنزلة التي تليق بها، وأن يسهم هذا العمل في إثراء المكتبة العربية.

وفي هذه الخاتمة أود أن أشير إلى عدة نتائج ومن أهمها:

1– ضرورة دراسة اللغة في استعمالها وفقا للمنهج التداولي.

2– أهمية عرض مفهوم التداول ونشوئه في الدراسات المعاصرة.

3– تبين لنا أن استراتيجيات الخطاب تنقسم إلى ثلاثة معايير مهمة هي:

المعيار الاجتماعي– وتكون العلاقة فيه بين طرفي الخطاب.

المعيار اللغوي– ويقصد به شكل الخطاب.

(1) - إبراهيم الكوني رواية التبر ص 93

(2) - مرجع سابق ص 94

(3) - مرجع سابق ص 105_106

معيار هدف الخطاب- وهو انطلاق من أن المرسل لا يستعمل اللغة إلا لهدف معين، وهذا الهدف لا يتحقق إلا باليات محدودة وأدوات لغوية معينة.

4- تعد الرواية الليبية على الرغم من عمرها القصير فنيا، إلا أنها قد قفزت قفزات سريعة في تطوير بنيتها الفنية.

5- اهتمام الكاتب بالصحراء؛ حيث يغلب على رواية التبر المفردات والألفاظ الصحراوية التي وظفها بقصد جذب المتلقي لهذا العمل وإدراك الضعف الذي تعيشه أمة الطوارق.

6- وجود طابع ثنائية الخير والشر في الرواية يدل على تقنيات الحطاب ولغة الأسطورة والمرجع الديني؛ وكذلك مستويات اللغة تبدو حاضرة بقوة في الرواية.

7- كثرة الخطابات والحوارات والجدل بين شخصيات الرواية

8- اعتقاد أهل الطوارق بأن هناك عالما آخر يجاورهم ولكنه غير مرئي، وهو عالم الجن.

9- أن المنهج التداولي في دراسة اللغة يمثل مصدرا ثريا يمكن أن يغني البحث اللغوي في مناح متعددة.

10- استثمار الأصناف البديعة في أحداث الرواية.

وفي النهاية نأمل من الله أن تكون دراستي هذه سببا في محاولة معرفة استراتيجيات الخطاب بصفة عامة وإبراز أهميتها في مجالات متعددة.

كما أتمنى أن يكون هذا البحث القصير، قد يساعد في عمل أبحاث جديدة عن هذا الأدب الرائع.

وفي الختام لا يسعني في هذا المقام إلا التضرع إلى الله -عز وجل- شاكرا له على ما من به علي من صواب وتوفيق، مستغفرا على ما وقع مني من زلة وخطأ وصل الله على حبيبنا محمد وعلي آلة وصحبه أجمعين

والله الموفق... وهو الهادي إلى السبيل